

فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصلحوا عزوبها وأرهفوها فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتخصيه وتكويبه وتقديسه وإنما المغي بذلك منه الاحتياط للموعى وعليه وجوازه بما يعطر نشره فلا يعتر جوهره كما قد عد من المعاني الفاخرة ما قد ثمود وزخرفوه ووشوه وديجوه ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لا نجد قصداً ولا مقارباً ألا ترى إلى قوله رحمه الله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان ما هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بينا ... وسألت بأعناق المطي الأباطح

وقد ترى إلى علو هذا اللفظ وما به وصقاله وتلامح أمحانه ومعناه مع هذا ما تحته وتراد إنما هو لما قرعنا من الحج ركنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضة قيل هذا الموضوع قد سبق إلى التعليق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما رآه القوم منه وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق ثم أفاض في بيان معاني البيتين.

وقال في باب إرادة العرب للأغراض التي نسيها إليهم حدثني المتنبى شاعرنا وما عرفته إلا صادقاً قال كنت عند منصرفي في مصر في جماعة من العرب وأحداهم يتحدث فذكر في كلامه فلاة واسعة فقال يحير فيها الطرف قال آخر منهم بلغته سراً من الجماعة بينه وبينه فيقول يحار يحار أفلا ترى إلى مداية بعضهم إلى بعض وتنبهه إباد على الصواب.

سير العلم والاجتماع

آداب السعادة

كتب رئيس تحرير المجلة الباريزية مقالة في هذا الموضوع قال فيها أن السعادة مادة حياتنا وقائد لها وهي تتربا بأشكال متنوعة وإنا إذا رأينا ما يبذله أهل الأرواح الشريفة من الهمم يتراءى لنا أن رغبتهم في أن يعيشوا في شقاء ولكن إذا أمعنا في استقراء أعمالهم نراهم يرمون إلى نيل سعادة أرقى. الغاية العامة من العلم الأدب والغاية الخاصة تخلص الحقيقة من الحوادث والعواطف. المؤمدين بكل ما فيه للأجيال الغابرة وهذا دين عليه يجب عليه أداؤه لن يأتي بعده وعلى المرء فروض يجب عليه القيام بها نحو الأموات ونحو الأحياء وهذا واجب يتحتم عليه في أعماله وأفكاره فقد علمه الاختبار أن سعادته ليست إلا نتيجة سعادة مشتركة فهو مخلوق على مثال الأجيال السالفة وهو تابع للإنسانية التي تحيط به. إذا عاد المجتمع إلى عهد اللصوصية واختل نظامه فإن سعادة المرء الخاصة تضحل في السعادة الاجتماعية وكل احتياط صحي يأتيه المرء يفيد المجموع كما أن صحته مناعة بما يقوم به المجموع من أساليب الصحة العامة والأمثلة كثيرة على أن التكافل مشترك والعلاقة مؤكدة بين مصالحنا الخاصة ومصالح المجموع فليس لامرئ حق أن يتمتع بالخيرات التي هي ثمرة عمل الآخرين دون أن يساعد بنفسه وعلى قدر طاقته على رفع منار السعادة وعلم الأمن والسلام.

ليس الأدب أو الأخلاق إلا بعض فكرنا نستطيع أن نصوره أو نقله على الصورة المؤلفة منها عناصره. يقول بعضهم أن الأخلاق غريزية في المرء وليست كسبية ولو صح قولهم لكانت الأديان والتربية لغواً لا فائدة منها ولكان على الناس أن يغلقوا المعابد والمدارس أيضاً. نعم إن السعادة مناعة بشعورنا الأدبي والذكاء والسعادة يسيران معاً على خط متواز يتجلبان أهما متشابهان وهما متخالفان جوهرأً وعرضاً فالذكاء لا يؤثر في السعادة إلا بالواسطة وذلك بتجهيز حياتنا بسلاح ماضٍ وبالتأثير في أخلاقنا وميولنا.

قال أغوست كونت مؤسس الفلسفة الحسية أن كمالنا الأدبي يعينا على سعادتنا الحقيقية مباشرة من دون أدنى ريب أكثر مما يعيدنا غيره. وقال الفيلسوف ديكارث صاحب الفلسفة الحديثة: "كل من عاش عيشة لا يوبخه عليها وجدانه ولم يقصر في القيام بكل ما يراه أحسن (من الفضائل) ينال عن سعيه جزاءً وفاقاً وتواتيه السعادة. قال الكاتب ومضى أدركت الإنسانية أن سعادتنا منا وأنا لسنا سعداء لأن لنا إرادة في السعادة تنهار حولنا ألوف من الأوهام التي تعوقنا عن كمالنا الأدبي وتقف عثرة في سبيل سعادتنا. وما شقاؤنا إلا ثرة إساءتنا فهم معنى الحياة فنضرب غيرنا دون أن نحظر لنا ببال أن شقاء غيرنا ضار بنا فالحسد مثلاً مصدر النقائص الاجتماعية وهو ضار بنا أنفسنا. والخير والحب وهما منبع سعادة الغير ينفعان من يأتيهما قبل كل الناس. حياة العائلة المؤسسة على الحب والاحترام المتبادل تنفع أعضائها وأي نفع. وأنا حينما التفتنا نرى العبر قائلة بلسان حالها ومقالها بأنه من المتعذر أن نستمتع بسعادة شريفة دائمة دون أن يصنع بما القريون منها وكلما امتد ميدان حياتنا وشرفت مبادئها وخواتمها يرداد التكافل بالسعادة فقد قال أفلاطون أن السعادة علم فمن عمل الشر فهو ممن لا يعرف الخير وهكذا الحال في السعادة فإن الشقي هو الذي يحفل كيف يقدر أن يكون سعيداً.

التسمم بالتدخين

جرب الدكتور سرج جبرو وسكي تجارب كثيرة لبيان أن التدخين يحدث في جسم الإنسان آثاراً تسمية وذلك بأن حقن الحيوانات تحت الجلد وفي الدم بالنيكوتين وقد اسعمل لذلك جهازاً تمكن بواسطته من أن يضع الأرانب ست أو ثماني ساعات في اليوم في مكان محكم السد يدخل إليه بمصخة دخان اللفافة (سيكاره) فكانت تظهر في غضون الأسبوع الأول على الحيوان آثار القلق ويزيد فيه إفراز الدمع والبصاق وبعد

امتصاص الدخان كان يستوي على الحيوان الضعف والبلادة وتتأقل مشيته وفي الأسابيع التالية تزول هذه الأمارات وتحل محلها قلة القابلية للطعام. وقد مات عند انتهاء الشهرين أرنبان ودل الفحص الجهري (الميكروسكوبي) لقلبهما على تلف الجسم من فعل الدخان على أن الأخرى قاومت خمسة أشهر وظهر فيها فساد الدم ونزل وزنها إلى النصف وبهذا أثبتت تجارب الطبيب الموما إليه أن الحيوانات تعناد التدخين ولكن فساد نسج قلب الحيوان معادل لما يحصل في الإنسان.

الاستحمام

قال أحد الباحثين في مجلة الحياة البيئية ما تعريه: يطالب التبرج والزينة أن تصرف العناية في الطهارة خاصة وتكون متناسبة مع السن والمزاج والجنس على حين أن حفظ الصحة يتطلب أن تختلف هذه العناية باختلاف الأمكنة والأزمنة والحرارة. والحمام ألطف جميع ما تقتضيه الزينة من أنواع العناية وأكثرها بساطة وطبيعة فهو الذي يؤثر تأثيراً سريعاً في الصحة. فبالحمام رفاهية لا تنكر مزاياها وذلك لأن المسام إذا فححت بالحمام تسرع حركة الدم وتعمل في الحال في الجلد بأن تترع عنه القشور التي تغطي بشرة جسمنا.

وتختلف تأثيرات الحمام بحسب درجة الحرارة أو البرودة في الجو كما تختلف الاحتياطات عند الخروج باختلاف المناخ وذلك لأن الحرارة تشد الجسم والبرودة على العكس تصيقه.

الحمامات الباردة مقوية ويجب أن يغطس الجسم كله بسرعة وقد يحدث من الدخول في حمام بارد بعض الضرر وذلك عندما يغمس المرء في الماء بالتدريج فتدفع البرودة بالحرارة نحو الأطراف فتصل إلى الدماغ مثلاً. ويقال بوجه عام أن الحمام البارد إذا

نفع الأحداث وقوى بنيتهم فلا يليق بالشيخ ولا بأرباب الصدور النحيفة لأن رد الفعل لا يتم فلا يتأتى أن تعود الحرارة إلا بصعوبة.

إذا أريد الاستحمام بالماء البارد يجب على كل حال أن يكون الجسم مستريحاً والمضم تماماً كل السام ورشح البدن لا يكون كثيراً من المشي. وإذا بلغت الحرارة درجة لطيفة يمكن أن يبقى فيها المرء نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة ولا يجب أن يتجاوز المستحم هذا القدر من الوقت. وعلى المستحم عندما يخرج من الحمام أن يحتاط بتشيف بدنه وذلكه جسمه كله لبرع منه الرطوبة ويرفع عن الجلد الأجزاء الصغيرة التي تستخرج منه بفعل الماء. وإذا شعر بأنه يبرد ينبغي له في الحال أن يدلك جسمه بماء اليبون أو بعض الأرواح الأخرى وعليه لإعادة الرشح تماماً أن يمرن عضلاته تمريناً خفيفاً.

ومن الحكمة أن يمتنع المستحم عن تناول الطعام حال خروجه من الحمام لأن الحرارة تتقل من وسط الجسم إلى الأطراف فتترك الحواس الماضمة خالية من جزء من القوة اللازمة للقيام بوظائفها.

وإذا ناسبت الحمامات الباردة الدمويين أو السمان من الأشخاص فقد تضر المستعدين للهبزأل. وعلى الحملة فإنها قلما تنفع من عودوا الرخاء والجلوس. ومن الاحتياط أن لا يتحموا كذلك إلا بإشارة الطبيب.

الحمامات الحارة تزيد العرق وإذا قلّ تعيده كما كان وتلين الألياف. والواجب أن يعمل الحمام بحسب الحالة الصحية وإذا أكثر منه يضعف الجسم ويتعب ويعد للزلات.

أما الحمامات الفاترة أو الحارة فلا يقضي لها الاحتياط بقدر الاحتياط للحمامات الباردة والاحتياط فيها مطلوب عند الخروج منها ويحسن بعد الحمام السخن أن يقعد

المراء في فراشه بعد أن يكون قد نشف جسمه بمنشف غير ندية وحرارة وذلك لأن ما يحدث أمراضاً كثيرة هو التعرض لفعل الهواء الخارجي.

ومن القواعد التي يجب مراعاتها أن يستريح المستحم قبل الحمام البارد وبعد الحمام السخن والواجب أن يعنى بذلك الجسم عند الخروج من الحمام حتى لا يتضرر الجلد ويتخلص من الذرات القشرية التي أبقاها الاستحمام على الجسم. وإذا لم يسع المرء أن ينام بعد الحمام فلا أقل من أن يمزج جسمه قليلاً فليشعر في الحال بتأثيرات هذا الاحتياط وينتفع الجسم من ذلك أحسن نفع.

تنفع الحمامات البخارية في البلاد التي يشتد بردها في إهاجة الرشح الطيء النادر وضروري في الأقاليم المعتدلة الاستحمام بالماء الفاتر ليزعج من البشرة الذرات التي تنبعث من الجسم. وفي الأوقات الرطبة يحسن ذلك الناشف. ولما كان الرشح في البلاد الحارة يكاد يكون متواصلاً فمن الضروري أن تكون الحمامات على درجة أقل من درجة حرارة الجو ليحدث بذلك التوازن في الأخلاط ويسكن هيجانها العادي.

وإذا لم يساعد الحال والمكان على استيفاء شروط الاستحمام فالواجب أن يستعاض عنه بغسل بعض البدن بماء حار أو بارد بحسب الموسم وقد لا تستوفى من هذا الاغتسال الشروط الصحيحة الناشئة من الحمامات ولكنها تكفي في صيانة الجسم.

والأشخاص الذين يعبون أحياناً بما ينهال من الدم على رؤوسهم يجب عليهم أن يستحموا استحماماً تاماً ويغسلوا أرجلهم ويتأتى لهم الاستعاضة عن الأول والثاني بغسل أيديهم بالماء المغلي. وهذا الدواء على سهولته نافع في أمراض الأسنان لا للطاعنين في السن بل لصغار الأولاد.

المحظورات

يحظر عليك أن تضع إصبعك أو طرف مقلتك في عين جارك.

كما يحظر عليك أن تضع إصبعك في أنفك حتى ولو كان يحك.

لا تنظف أمام الناس أنفك ولا أذنك ولا أسنانك ولا أظفرك.

لا تدعس على رجل جارك ولا على ثوب جارتك.

لا تجلس على طرف كرسيك ولا تتر عليه.

لا تعث بمذب ثوبك ولا بأزرارك.

إذا صافحت فلا تصافح بغصع واحد بل بجماخ راحتك مفتوحة.

لا تدخل إلى قاعة الاستقبال ومعك مظلتك ولا معطفك ولا مشمعيك.

غلط الشعر

تختلف نخانة الشعر من واحد إلى عشرة من المليمتر إلى أربعين. وقطر خيط الحرير

كما نخرجه الدودة هو نحو خمسة مليم من المليمتر ويمكن أن تحاط الكرة الأرضية

بليرة من خيط العنكبوت كما أن قمحة واحدة من المسك تعطر غرفة مدة عشرين

سنة وفي جمننا ٢ . ٣٠ . ٤٠٠٠ من المسام.

أثقل تمثال

أثقل تمثال من البرونز نجده في بطرسبرج وهو تمثال بطرس الأكبر ثقله زهاء ألف طن.

الطول البشري

تبين من التجارب التي صنعت لاختبار طول قامات الرجال والنساء أن من يولد في

الربيع أو في الشتاء أكبر قامة من يولد في الفصلين الآخرين والبنات الطويلات القامة

يلدن في آب أما البنون فأطولهم قامة من ولدوا في تموز وأصغرهم من ولدوا في تشرين

الثاني.

التفنن في التعليم

ورد في قصة لديكنس أن إحدى المعلمات كانت تكرر على تلميذاتها كلمات برون بريسم بوتاتويس ليمددن شفاههن المنضمت بعضها على بعض ويبدو الظرف على أفواههن. وقد توسعت الآن إحدى العقائل في هذه الطريقة وقامت تدعي أنها تستطيع أن تعيد القيحة من النساء مليحة وأن نصير الملاح أعجوبة الأعاجيب فأست لهذا الغاية في إنكلترا مدرسة أخذ الطالبات ينهلن عليها أهبالاً وقد قسمتها صفوفاً فجعلت صفاً لعليم البنات كيف يلقين نظراتهن الفتانة ويسحرن بما الألباب وصفاً لعليم البنات تحريك أنوفهن تحريكاً جذاباً خلاباً وصفاً لعليم الشفاه على الحركة ومتى أتم الفتيات العليم في هذه الصفوف ينتقلن إلى صف أرقى حيث يعدن نظرة إجمالية على كل ما تعلمن فيأتين فانات ساحرات.

النوم الضروري

كلما أمكن ترك الأولاد ينامون كثيراً كلما كان أنفع لصحتهم. ويؤخذ من البحث الذي تم في بلاد السويد أن الأولاد الذين لا ينامون القدر الكافي من النوم تزيد أمراضهم جزئين من خمسة أجزاء. فمعدل ما ينبغي من النوم للطفل الذي يذهب إلى المدرسة اثنتا عشر ساعة لمن كان في الرابعة من سنه وإحدى عشرة لمن كان في السابعة وتسع ساعات لمن كان بين الرابعة عشرة إلى العشرين.

أرجل الصنيات

كنا نسمع بأن من جمال الفتاة الصينية أن تكون صغيرة الرجلين وأن القوم هناك يستعملون لتصغيرهما قوالب مخصوصة وقد ذكرت الصحف أن حكاهم ولايات كينغ سو وكينغ سي وكينغ هوي وناكان هوي من الولايات الصينية قد أصدروا بياناً يحظرون فيه على النساء أن يعصبن أرجلهن قائلين إن ذلك مما يمس حنان قلب الأم والفتيات يضعن الحياء إذا تكلفن الجمال ويصبحن ضعفات غير قادرات على العمل

ويحسن فقيرات. وقد وعد أولئك الحكام بمكافآت للصينيات اللاتي يعدلن عن تصغير أرجلهن.

أسماء الأقمشة

سميت كثير من الأقمشة في بلاد الإفرنج بأسماء المدن التي حاكتها أول مرة فعندهم نوع من القماش اسمها دماس نسبة لدمشق حيث كان ينسج الحرير منقوشاً بنقوش بارزة. وعندهم قماش اسمه كاز نسبة لغزة في فلسطين وآخر اسمه أندرينوبل نسبة لأدرنة في الروم إيلي والموسلين وهو الشاش الرفيع صنع لأول مرة أيضاً في مدينة الموصل فنسب إليها والكاليكو قماش صنع أول الأمر في مدينة كاليكوت من بلاد الهند فنسب إليها.

انقضاء العالم

نشر أحد علماء الطبيعة مقالة في مدة بقاء الأرض أو انقضاء العالم ومتى صلحت الأرض لسكنى الحيوانات والنباتات فقال أن من الأسهل أبداً السؤال عن هذه الأسئلة ولكن الصعوبة في الإجابة عنها فقد كان النظام الشمسي في البدء عبارة عن كتلة عظيمة من الأبخرة المتأحجة أو منطاداً ضخماً من الغاز حامياً يدور بحركة فوق نفسه. فجمد البرد في الفضاء الغيوم الأصلية وانفصلت السيارات من الأجرام الموجودة في الوسط وأخذت السيارات تبرد على الولاء بقدر أجرامها فيبرد الأصغر ثم الأكبر. وقد طال أمد كل سيارة ونمت على توالي الأزمان فجمدت الأرض وتماسك سطحها السائل وعلى هذه الصورة نشأت القشرة الأرضية.

ويهنا هنا أن نعرف عمر الأرض أو عدد السنين التي مضت على تكونها والأعوام التي تفصل العصر الحالي من العصر الذي ظهرت فيه على سطحها الأحياء الأولى ولا سبل إلى ذلك إلا على وجه التقريب. وإذا كان عمر الأرض مرتبطاً بعمر الشمس

كان من الواجب أن نعلم أولاً الحدود التي يجب أن نحصر فيها وجود الشمس فقد حسب علماء الهندسة كمية الحرارة التي ادخرها تقلص السديم الأول في السيارة الوسطى وحققوا قوة الحرارة الحالية وما يفقد منها كل سنة واستنتجوا من ذلك مقدار الزمن الذي وجدت الشمس فيه. وبحسب ما حسبوا تبين أن الشمس موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة على الأقل أو منذ أربعين مليون سنة على الأكثر. ورأى الطبيعي نوكمب بحسب النور الحاضر أن الكوكب يصغر إلى نحو النصف من قطره في خمسة ملايين من السنين على أكثر التقدير وأنه بعد عشرة ملايين سنة يكاد يكون له قشرة فيحتمل إذ ذاك أن تصلح الأرض للأحياء على الوجه الذي نعرفها به.

وإذا كان جرم كرتنا الأرضية أصغر من جرم الشمس بـ ٣٥٠٠. ٠٠٠ مرة فظاهر أن الأرض بردت قبل غيرها وثبت لعالم آخر اسمه ويليام طومسون بالتحليل الرياضي أن الأرض جمد سطحها منذ عشرة ملايين من السنين أو منذ خمسة عشر مليوناً على التقدير الأكثر فبرد تاريخ أصل الأحياء على الأرض إلى اثني عشر مليون سنة.

وبالجملة فإن لنا أن نستنتج من هذا أن الأرض موجودة منذ خمسة وعشرين مليون سنة على الأقل وأن الأحياء الأولى التي عاشت على سطحها قد ظهرت منذ اثني عشر مليون سنة والغالب أن الكائنات الحية الحاضرة تنقضي أيامها بعد عشرة أو اثني عشر مليوناً من السنين وعلى هذا فآخر أيام الدنيا بعيدة وبحسب ما تقدم تكون الأرض الآن قد قصت نصف حياتها فمضى اثنا عشر مليوناً من السنين وبقي ما يقرب منها بعد وبذلك نظمنا على مقتل الجنس البشري.

جمال النساء

معيار الجمال في الأمم أذواقها ومصطلحاتها فمن الجمال في أوروبا أن تكون أسنان النساء بيضاء وفي اليابان يؤثرون من اصفرت أسنانهن وفي الهند يصيغنها بالحمرة وفي

بوكارات بالسواد والنساء في غروانلاندا يدهن وجوههن بمادة زرقاء صفراء والتاتاريات مهما بلغن من الجمال الطبيعي يرين أنفسهن بشعات إن لم يبيضن وجوههن على مرأى من الناس على حين ترى الأوربيات إذا وضعن الحمررة على وجوههن يخفين أمره ولا يكدن يظهرنه. وفي فرنسا يفضل من النساء المشوقات القدود وفي البلاد العثمانية يؤثرون السمينات المكتزات كما يفضلون من استدار وجهها. أما الفرنسيين فيفضلون الوجود المستطيلة المناسبة. ويفضل اليونان من النساء من صغرت جبهاتهن أما الفرنسيين فيطلبون أن تكون جبهات النساء عالية مكشوفة. الناس في أوربا يفضلون الشعر الأسود أو الأشقر أو الأسفع ولكن سكان جزائر ماريانا يفضلون من ابيض شعرها من ربات الجمال. وعلى هذا فلا يسر لامرأة أن تنفق الأهم على جمالها لأن ما يراة قوم حسنة قد يراة غيرهم سيئة فسبحان مقسم العقول والأرزاق.

الآثار العربية

أهدى المسيو كورد مانش مكتبة الأمة في باريز مجموعة مؤلفة من ١٥٨ متاباً من المخطوطات العربية والفارسية والتركية وكان أهدى مثلها من المخطوطات والمسكوكات العربية إلى تلك المكتبة نفسها فكتب مجلة العالم الإسلامي مقالة في هذه المناسبة قالت فيها أن هذه المخطوطات لا تروق المشتغلين بالعربية من المشرقين ممن يرون أن المصنفات التاريخية الشائعة هي وحدها تحتوي على بعض الفوائد مدفوعين إلى ذلك بعامل فيهم لها من دون سائر ما خطه أيدي مؤلفي العرب وزاعمين أن ما بقي من الأدبيات الإسلامية عبارة عن أحاديث ملفقة وهذيان ليست حرية بنظر رجل تمكن من الطريقة القويمة في المعارف وإن مثل هذه الكتب لا يقبل عليها ويصرف أوقاته فيها إلا من تلبد ذهنه أو احتل شعوره فإذا كان التاريخ الإسلامي هو م الفروع

المهمة جداً في الآداب الشرقية فإن سائر فروع العلوم كالفقه والنحو (وأكثر مجموعة المسيو كوردمانش منها) ربما لا تقل عنها شأنًا لأنها ليست وحدها التي تصور حالة العقل في الرجال الذين أتوا قبل ثلاثة عشر قرناً من الهجرة النبوية وكيف كانوا يفكرون ويلهجون في مذاهب الأمور الذهنية والروحية.

لا جرم أن المشاغل السياسية منذ بضع سنين ولاسيما منذ قتال موكدن قد قلبت الأفكار الإسلامية ظهراً لبطن وأخذ رجال الإسلام يزينون لأبناء دينهم الرجوع إلى الدروس التي انغمس فيها أجدادهم بحيث كادوا يغرقون وتعزوا عن الحية التي نالتهم بما قرأوا فيها من الأفكار على أن النظر الصحيح يقضي بأن المهندسين الذين مدوا في بادية بلاد العرب خطوط السكة الحديدية من دمشق إلى المدينة قد أتوا بعمل أنفع مما أتى الزمخشري وجميع شراح الكافية لابن الحاجب. إلا أن الأفكار الحديثة توشك أن تؤدي بالإسلام إلى طرق مخالفة للطرق التي سار عليها إلى أوائل القرن الرابع عشر من الهجرة ويمكن أن يكون المجتمع الإسلامي بعد مائة وخمسين سنة وأعني به الجيل المفكر المهذب من المسلمين مخالفاً للمجتمع الذي عاش على عهد عبد الحميد خان الغازي وناصر الدين شاه قاجار كما تختلف نحن معاصر الفرنسيين اليوم عن أجدادنا زمن لويس الخامس عشر وربما كان اختلاف المسلمين أكثر.

كان المسلمون الذين عاشوا في بلاد ما وراء النهر إلى أواخر القرون الوسطى على عهد أخلاف تيمورلنك قد ورثوا التمدن اليوناني وبلغوا بالعلوم إلى درجة عجيبة من الكمال ثم لم يلبثوا أن ضعف أمرهم وتحلوا عن هذا التراث العلمي وانصرفوا جملة إلى الفقه والنحو فكان ذلك مبدأ سقوط الأمم الإسلامية.

ومهما كانت الطرق التي سيجري عليها أهل الإسلام في ظل العلم والدستور اليوم فإفهم ولا جرم يخالفون المسلمين الذين عاشوا في ظل الاستبداد كل المخالفة ولا يتأتى

الآن الوقوف على فكر العالم الإسلامي قبل مضي زمن وتصفح الكتب التي يستخدمونها في تعليم ناشئتهم وطريقة الرجال الذين عاشوا على عهد الخلافة الدينية أو خلافة السلاطين الذين حلوا محل خلفاء بغداد وهكذا فإن هذه الكتب التي تشهد بفضل مؤلفيها وبعنائتهم الفائقة التي بذلوها في وضعها وهي تساوي بأسلوبها وتعليقها أقل مما تساوي بدلالاتها على الحركة العقلية في مدينة كانت الحاكمة المحكمة على العالم زماناً ونعني بما مدنية الإسلام. ومكانة هذه الكتب لا تسقط أبد الدهر حتى ولو أدى الارتقاء العلمي الإسلامي إلى طرحها والاستعاضة عنها بمصنفات تؤلف على غير نسقها وعلى أسلوب يغاير أسلوبها ولا سيما متى انصرفت النفوس عن دراسة علوم اللسان والفقهاء إلى علوم يكون نفعها عملياً ظاهراً.

لا جرم أن علوم المسلمين ودرسها تشبه ما كان لنا منها في عهد الحكومات البائدة وأن من عانوها وأتقنوها إذا تعلموا جميع دقائق النحو العربي وتبحروا في فقه السنة والشيعه لا يتأتى لهم بذلك أن يقفوا على مطالب الحياة الاجتماعية والعالم الخارجي. وبعد فإن كتب النحو العربي التي هي مصنفات تامة في بابها يجب الرجوع إليها إذا أريد التعق في هذه العلوم وفهم فكر العربي وهي تشبه كتبنا التي كانت مستعملة في المدارس قبل إصلاح بور روبان. وربما زهد الملون في الاعتماد على الطريقة القديمة والكتب القديمة في هذه الفنون لأن بعضهم يرى أن الألفية والأجرومية قبلاً تستدعي انتباه ذهن الطلبة وذاكرة فائقة لاختيار طريقة تشبه طريقة الكتب التي نعول عليها في دراسة اللاتينية وغيرها من اللغات وربما لا يمضي وقت طويل إلا وتتحسن طريقة دراسة الآداب العربية كما تحسنت عندنا في الغرب. على أنه لا يعد أن تقل الرغبة في هذه الدروس اللسانية كان درس الفقهية التي كانت الدروس المعول عليها فقط في العهد الماضي ولا سيما في البلاد العثمانية والفارسية ويعتبر القوم علوم الدين واللغة

التي كانت موضوع اهتمام المتفهمة والمتصوفة من علوم الرجعة لأن القائمين عليها أناس كانوا في الجملة مراعاة لمصالحهم أصدق أنصار عروش السلاطين الذين يدعون الخلافة عن الله في الأرض.

وكيفما كان الحال فإنه لا يتأتى الوقوف على الفكر الإسلامي في كتب ألفت على النسق الأوربي وسارت في أسلوبها على نسق الخطط الغربية كما أنك لا تسقط على الفكر الياباني قديماً من مراجعة الترجمات الإنكليزية والفرنسوية التي تعين رعايا ميكادو واليابان من اجتياز أبواب المدراس الحربية في مملكة الشمس المشرقة.

ولا يتيسر درس الحضارة الإسلامية القديمة بغير الرجوع إلى هذه الكتب في الفقه معاملات وعباداته والنحو ومعتقداته. تلك الكتابي يسهلها علماء المشرقيات لأنها على غير أسلوبهم ولأنها من بقايا القرون الوسطى على حين أن نشوء الدروس الذي وقع في الغرب منذ عهد النهضة قد صير الكتب المكتوبة باللاتينية بأقلام أساتذة علم الكلام معقدة غير مفهومة إن لم يصرف فيها المرء وقتاً طويلاً.

وفي المجموعة التي أهداها المستشرق المشار إليه عدة كتب مشهورة منها قطع من القرآن ربما كانت بخط ياقوت المستعصي الخطاط الشهير وقطعة من كشف الرمحشري وقطعة من تفسير القرآن لليضاي من أوائل القرن الرابع عشر وقطعة من الحديث من القرن الثالث عشر ونسخة قديمة جداً من مقامات الحريري وكتاب في القرآت فارسي وشرح كافية ابن الجاحب بالفارسي.

وقد ظفروا بهذه المجموعة في سمرقند وهي تمثل صورة من صور علم الفقه والكلام عند السارتيين والتاجكيين في بخارى وسمرقند وكشغر وبعبارة أخرى صورة من صور علوم المسلمين في التركستان الرمسي والتركستان الصيني وبما يمثل الناظر حالة المعارف

عند كل من كانوا يعيشون في تلك الأثناء من المسلمين لأن جزءاً كبيراً من الكتب
التتألف منها هذه المجموعة قد نسخت هناك.

وليس في هذه المجموعة إلا كتب خاصة بطائفة مهيبة من طوائف المسلمين إلى حد
معلوم والنسخ الحديثة من كتب الفقه والنحو تدل على أن معرفة اللغة العربية التي هي
أساس الدروس الإسلامية هي في أقصى دركات الانحطاط في تركستان على أن هذا
الانحطاط يرد إلى أبعد من ذلك العهد لأنه وجد في عهد التيموريين في الكتب
والمكتوبات على الأحجار من الأغلاط الفادحة ما يستدل منه أن معرفة اللغة العربية
هو أحط من ذلك العهد مما هي عليه اليوم في فارس حيث أصبح طلاب الفقه دع
عنك المجتهدين ولا سيما في النجف وكربلاء أساتذة في أسرار علوم الصرف والنحو.

وهذه النسخ بالإجمال استنسخها أناس لم يعنوا بما حق العناية وليس لهم فيها ذوق حتى
إن بعضها لم يكتبوا عليه اسمه واسم مصنفه جهلهم في الغالب. وهذا الجهل وهذا
الإهمال يكفيان لبيان السقوط المريع الذي أصيب به ذلك الذي يسكن تلك الأقطار
التي كانت فيما غير مهد العلوم والآداب.